الايديولوجيا /الخطاب/ النص

– مقاربة مفاهيمية -

أ. السعيد عموري

جامعة بجاية

ملخص:

يندرج هذا المقال ضمن الدراسات التي تقدم مقاربات مفاهيمية للمصطلح الأدبي والنقدي، باعتبار أنّ الفارق في القراءات العلمية والمقاربات الأكاديمية، هو تحري وضبط المصطلحات وبالأخص في مجال الدراسات الأدبية والنقدية، أين عرف كل من مصطلح الايديولوجيا، والخطاب، والنص عديد المقاربات عبر مختلف الدراسات الفلسفية والفكرية وكذا الأدبية. والمقال التالي يقدم مقاربة مصطلح الايديولوجيا في تعالقه بمفهومي الخطاب والنص، على اختلاف الفروقات التي بينها في الدراسات الحديثة، بغية تأطير منهجي للبحث في التشكيل الأيديولوجي للنصوص الأدبية، في الوقت الذي صار للايديولوجيا مداخل قراءات متعددة عند الباحثين في مقاربات المعنى في النصوص.

Résumer :

Pour reconnaitre l'enracinement des notions exactes dans le domaine fonctionnel cela, reste la principale recherche académique car, la différence entre les lectures scientifiques et le traitement des sujets résident de domaines de la recherche, précisément dans le domaine des sciences humaines, ou les termes idiologie et discoure, dans le texte trouve plusieurs approches entre des études philosophique, dogmatique et littéraire.

L'objectif de l'article présent une approche de la notion idéologie et ca relations avec le discoure et le texte, malgré les différences sensées dans des différentes recherches ressente dans ce domaine, et pour un encadrement méthodologique de la recherche dans les constructions idéologiques des textes littéraire, dans un temps ou l'idiologie représente pour les chercheures une multitude de lecture du sens dans le texte.

مقدمة:

نحاول في هذا المقال مقاربة علاقة الايديولوجيا - كمنظومة فكرية شاملة- بتجلياتها على مستوى النصوص الأدبية منها بخاصة وغير الأدبية بصفة عامة، وعلى اعتبار حالة التلازم التي بين النص والخطاب من جهة، والتلازم الذي بين الايديولوجيا وبين كل من النص والخطاب، تقوم هذه المقالة على مقاربة جدلية تلك العلاقة في محاولة لتوصيف وفهم التلازم الذي أساسه اعتبار الايديولوجيا فاعلة في تشكيل بنية النصوص، وفي نتاجاتها على مستوى النص كما على مستوى الخطاب. ومنه فإن تقديم مقاربة مفاهيمية لكل مصطلح من عناصر الجدلية على حدة أمر ضروري قبل قراءة حالات التلازم بينها.

مشكلة الدراسة:

يطرح هذا المقال إشكالية القراءة النقدية المعاصرة لمفهوم الايديولوجيا الذي عرف – عبر صيرورة تاريخية - تحولات فارقة في مجاله المفهومي، بخاصة في تعالقة بالمفاهيم السيمائية المعاصرة كالايديولوجام عند كريستيفا، وبالتالي فالسؤال المشروع هنا هو: عبر أي حدود مفاهيمية يمكن تحديد مفهوم الايديولوجيا في تعالقه مع ما يطرحه النقد من مفاهيم للنص وللخطاب، وكيف يتعامل النقد في كشف اشتغال الايديولوجيا في النص الادبي، وهو ما نحاول مقاربته فيما يلي.

منهج الدراسة:

تتبعنا في فك شفرات الإشكالية منهجية تحليلية واضحة، تنطلق من محاولة تقصّي مفهوم الأيديولوجيا ثم مفهوم النص والخطاب، وصولا إلى قراءة العلاقة الجدلية التي تربط بين المفاهيم في المدونة الكتابية.

أهمية الدراسة:

كثيرا ما نجد في نصوصنا النقدية توظيفا لمصطلح الايديولوجيا في مقاربات تطبيقية ونظرية لنصوص أدبية ولكننا نجد أنفسنا نسبح في بحر المفاهيم التي قد تنأى بنا عن حقيقة وجود واشتغال المصطلحات ويصبح مع ذلك النص النقدي بعيدا عن العلمية والأكاديمية، من أجل ذلك فإننا نحاول تسليط الضوء على واحد من أهم المصطلحات التي تقاسمتها كل المناهج النقدية المعاصرة وهو الايديولوجيا والنص والخطاب، بغية تأطير منهجي للبحث في تعالقها وتجسيداتها في النصوص الأدبية.

نتائج الدراسة:

بعد محالات حصر المجالات المفاهيمية لمطلحات الأيديولوجيا والخطاب والنص توصلانا إلى ما يلي:

- مفهوم الايديولوجيا قابل للتطور ويحمل في طياته قدرة على التفاعل مع التطور النقدي المستمر في مجال الأدب.
- مفهوم النص والخطاب يشكلان علاقة جدلية؛ بحيث إنّ الخطاب يظهر من خلال النص وفيه، كما أن لغة النص تُشكّل خطابا بحيث لا يكون الخطاب تجميعا للنصوص ولكنه البنية التجريدية لتجّمع ما.

1- مفهوم الأيديولوجيا:

إنّ الفضاء الذي نقدم فيه المجال المفهومي للايديولوجيا لا يمكن أن يتسع لكل ما قدمه الفلاسفة والمفكرون عن المصطلح تعريفا واشتغالا، لذلك فإننا سنكتفي بأصل المصطلح وبتعريف الماركسيين له على اعتبار أن الماركسية، في تطورها، قدمت مجال اشتغال الايديولوجيا عبر النصوص الأدبية تقديما يتسم بالشمولية والانفتاح على آليات الدرس النقدي الألسني، الأمر الذي مكّن الدارسين من البحث في

إيديولوجيا النص عبر مقاربة التشكيل اللغوي استنادا إلى أن المعنى يقدمه العنصر اللغوي في سيرورة تدلال غير منتهية.

أ- الايديولوجيا علم للأفكار:

قُدم مصطلح الايديولوجيا في بدايته الأولى على أنه علم الأفكار، ويعتبر الفيلسوف الفرنسي أنطوان دستوت دي تراسي Antoine destote de tracy أول من أرسى مصطلح الايديولوجيا بصيغته المعروفة idéologie وذلك في كتابه الشهير(تخطيط لعناصر الأيديولوجيا) عام 1801[1]، وعنى بذلك أن يكون المصطلح مقابلا للعلم الذي يدرس الأفكار دراسة علمية بحتة باتباع قوانين علمية مضبوطة، تنطلق من الملاحظة والتجربة لتصل إلى نتيجة محددة وهو ما يقودنا إلى استخلاص دي تراسي لفكرة ضرورة اتباع المنهج العلمي التجريبي في دراسة الفكر وقابلية الأخير للخضوع لمخبر التجارب العلمية، ودعوته للدراسة العلمية – بما يحمله مفهوم الدراسة العلمية- من معاني إعمال العقل والصرامة في اتباع المناهج التجريبية لدراسة الأفكار؛ فينبغي على الأيديولوجيين« دراسة الأفكار كما يدرس غيرهم الدورة الدموية»[2]. فهو يؤسس إذن لمفهوم الإيديولوجيا من خلال تقديم أهم مبادئها، وهو وجوب الدراسة العلمية للأفكار؛ أي إلزامية دراسة الأفكار وفق منهج علمي بيّن المعالم.

ومن خلال دي تراسي اهتم الإيديولوجيون بدراسة الأفكار في حالة مثولها الواقعي بعيدا عن الغيبيات وهو ما يفسر صبغتها العلمية والمنهجية، واعتمدت على الحقيقة الكائنة في تفسير الظواهر الاجتماعية فاستبعدت «الميتافيزيقا وحاولت إقامة

1 - Ideologie,Encyclopèdie, Encarta, 1998
2 - agora.qe.ca/mot.nsf/dossier/ideologie 10/12/2005

العلوم الحضارية على أسس أنثروبولوجية وسيكلوجية»[1] ومنه فإن توجه الايديولوجيا العلمي في جانبها التحليلي والانطلاق من الواقع لاستخلاص مادة التحليل، جعل منها ترتبط-في نشأتها- بالنزعة المادية التي ظهرت في القرن 18 في فرنسا، فكان دي تراسي وجماعته «من أنصار تلك الجماعة الفلسفية التي اقتفت أثار الفيلسوف الفرنسي كوندياك condillac»[2] فكان ذلك سببا في استلهام أفكارهم علمية المنهج والتحليل من المنهج العلمي التجريبي الذي عرفته الفلسفة انطلاقا من فرنسيس بيكون وتلميذه كوندياك ثم دي تراسي.

سيبقى الاتجاه العلمي أساسا للأيديولوجيا والخيط الرابط بين مختلف التعريفات التي تقصد في مقارباتها للمصطلح إلى الاعتماد على الأفكار الواقعية والابتعاد تماما عن كل ما من شأنه أن يجانب الواقع في منطلقاته، فأبعد المصطلُح الأفكار عن التأملات الفلسفية المثالية والنزوع الغيبي للأساطير والمعتقدات التي «فصلتها عن عالم الحياة الواقعية، وجعلتها تخضع للحكم والتقيم المنطقي»[3] ومن خلال تبني الإيديولوجيا للتوجه العلمي كمنطلق وكإجراء؛ فإنها صارت دعوة صريحة إلى حرية التفكير والتحرر من سلطة الميتافيزيقا التي فُرضت كقالب جاهز، ومنهج تفكير صارم غير قابل للتخطي، فهي نقطة انقلاب وقطيعة وتحلل من «الأحكام المسبقة التي يعتقد الطغيان أنها لازمة لحمايته ودعمه»[4].

1- زكريا إبراهيم، **مشكلة الفلسفة**، دط، (مصر: مكتبة مصر، الفجالة، دت)، ص.176.
2- المرجع نفسه، ص180.
3- عمرو عيلان، **الايديولوجيا وبنية الخطاب الروائي**، (الجزائر: قسنطينة، منشوراة جامعة منتوري 2001)، ص.12.
4- عبد الله العروي، **مفهوم الايديولوجيا**، ط7، (بيروت: الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،2003)، ص23.

ومن أجل ذلك ارتبطت الايديولوجيا أو علم الأفكار ببرنامج اصلاحي واجه حربا جريئة من السلطة في عهد الثورة الفرنسية، وعرف المصطلح بذلك انتشارا واسعا بين رجال الدولة حينما صار لقبا تهكميا يطلقه نابوليون بونابرت Napoléon Bonaparte على (دي تراسي) ورفاقه تحقيرا لهم، فنعتهم بالايديولوجيين Idéologues عندما « اصطدمت مصالحه وأفكاره التوسعية بجماعة الايديولوجيين التي يقودها دي تراسي ورفاقه، والداعية إلى القيام بإصلاحات جذرية في المؤسسة الاجتماعية بدءا بالتغيير الشامل لقطاع المدارس في فرنسا وخاصة لدى طلبة المعهد القومي حيث برامج العلوم الأخلاقية والسياسية»[1] وذلك لاعتقاد نابليون أن هؤلاء يجهلون المشاكل الحقيقية والتوجهات السياسية لتسيير المجتمع والدولة، ويشكلون بذلك خطرا على السلطة وعلى المجتمع، فشرع في العمل على إلغاء الجماعة والقضاء عليها حتى لا تترك آثارها بخاصة في أوساط طلبة المعهد القومي، ولم تكن أسلحته في ذلك أسلحة «الاستبداد والطغيان – فقط- بل استعمل الإهانة والتحقير والتهكم»[2].

حوّلت أساليب التهكم الأيديولوجيا من الإيجاب إلى السلب؛ حيث صار أوهاما تخفي الحقائق التاريخية وصار الفكر الايديولوجي عبارة عن تأملات لاواقعية تناقض الحقائق، واختلفت المفاهيم بين عديد الفلسفات في تحديد مقياس الفكر وآليات دراسته، وعاد مفهوم الايديولوجا ليقابل معاني الدونية والتفاهة« ودرج الاستعمال على تسمية أي تفكير باسم ايديولوجيا حين يجيئ هذا التفكير تافها وعديم الشأن، على

1- المرجع نفسه، ص.12.

2 - agora.qe.ca/mot.nsf/dossier/ideologie 10/12/2005

اعتبار أن المحك الأوحد لقياس قيمة الفكرة هو النشاط العملي»[1]. كما أخذ من معاني النفعية عند كارل يسبرس «هدفها الجوهري خدمة الغاية المراد بلوغها، عبر وسائط تُخفي الحقيقة الموضوعية عن الذات المعتقدة بها»[2].

إنّ الإيديولوجيا نظام فكري يحقق التماسك، ويمكن له تلبية غايات نفعية لفئة ما واستغلالها بحيث تتضاءل أمامها قوى المادية، وهو الأمر الذي يجعل من الايديولوجيا حضورا اجتماعيا وتصورا للإنسان وللعالم، حيث قدّمها علماء الاجتماع على اعتبارها رؤية شاملة للحياة وللمعتقدات وللخبرات الانسانية وبناء المجتمعات.

ب- المفهوم الماركسي للايديولوجيا:

عرفت الإيديولوجيا محاولات تأصيل وضبط للمفهوم عبر مختلف الفلسفات بخاصة الفكر الماركسي فكان «الاهتمام والتساؤل عن شكلها ومضمونها وكيفية اشتغالها وعملها أو وظيفتها في المجتمع، إحدى أكبر المشكليات الكبرى التي شغلت حيزا ومجالا أساسيا في حركة التفكير الماركسي»[3] فقد انطلق كارل ماركس Karl Marx الذي يعد أول من استعمل مصطلح الإيديولوجيا في علم الاجتماع[4] في بناء الأساس الفكري لفلسفته المادية التاريخية، بنقد الفكر الألماني، وبخاصة اليسار الناقد للوضع الفكري والسياسي القائم.

فقد اعتبر ماركس أن فكر اليساريين(المعارضين) الذي يؤسس لديمقراطية تلغي التسلط والاستبداد وتبشر بحرية فردية حقيقية، بالاعتماد على فرضيات العقل

1- زكريا إبراهيم، **مشكلة الفلسفة**، ص.180.
2- عبد الله العروي، **مفهوم الايديولوجيا**، ص29.
3- عمار بلحسن. **الأدب والإيديولوجيا.** دط، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب. 1984). ص 11.
4- محمد إسماعيل قباري. **قضايا علم الاجتماع المعاصر.** دط(الإسكندرية: منشأة المعارف. دت). ص.409.

البديهي، فكرا إيديولوجيا وهميا لأنه لا يعتمد على التاريخ كتطور واقعي، يقول مخاطبا اليساريين « تفسرون أوهام الآخرين بحب السيطرة والتقليد والتربية الفاسدة... إنكم تلغون التاريخ الواقعي وبإلغائكم إياه تملئون أذهانكم بالأوهام وتعرضون عن معرفة الواقع، فكركم إذن إيديولوجي غير علمي»[1] وبالتالي فقد أخذت الايديولوجيا منحا سلبيا يحمل تبريرات تجريدية تلغي التاريخ الواقعي وتنافي روح العلم الحقيقي الذي ينطلق من «الحياة الواقعية، من استعراض نشاط الإنسان وعملية تطوره المادي»[2].

كما ركزت الماركسية على اعتبار الإيديولوجيا وعيا زائفا وعملية ذهنية يقوم بها المفكر وهو واع ولكنه يجهل القوى الحقيقية التي تحركه، كما أن الأفكار متعلقة -في نشأتها- بحركة الفرد والمجتمع ويتصل تطورها بالتقسيم الطبقي وبالقوى الاقتصادية وعلاقات الإنتاج وبالتالي فإن جميع الأفكار والمذاهب عند الماركسيين مشروطة بالمواقف التاريخية، وما صراع الطبقات إلا انعكاس لشمولية الإيديولوجيا لكل الأشكال القانونية والدينية والفلسفية «فالطبقة التي تملك وسائل الإنتاج المادي تملك أيضا وسائل الإنتاج الروحي»[3] وبالمقابل فإن الطبقة التي لا تمتلك وسائل الإنتاج؛ أي التي لا تمتلك عنصر القوة نجدها تتبنى إيديولوجية الطبقة المهيمنة، وتعتمدها في الحياة اليومية بطريقة آلية من دون وعي فعلي بما تعتقده؛ فتعتمدها في ممارساتها الحياتية بوعي زائف يسيّر مواقفها من المجتمع، كما أن وضعية الإنسان في المجتمع أو انتماءه الطبقي هو المحدد الأهم في نمط أفكاره وتصوره للتاريخ.

---

1. عبد الله العروي. **مفهوم الإيديولوجيا**، ص. 23.
2- المرجع نفسه، ص34.
3. زكريا إبراهيم. **مشكلة الفلسفة**، ص. 179.

على أن نشاط الإنسان ليس فرديا بل جماعيا، وبه تتحدد الفئات الاجتماعية من خلال الدور الذي تقوم به في الحركة الاقتصادية، والبنية الايديولوجية هي البنية التي يعي فيها الناس علاقاتهم وصراعاتهم ونشاطاتهم، في مقابل البنية السياسية والحقوقية القانونية التي تحتضن تلك العلاقات.

- **الايديولوجيا عند لوسيان غولدمان:**

تركيزا على فكرة الوعي التاريخي للذات، يطرح الناقد لوسيان غولدمان Lucien Goldmann أفكاره التي بلورها في (رؤية العالم) والتي ضمّنتها نظريته الشهيرة بالبنيوية التكوينية التي أنشأها من المزاوجة بين النزعة البنيوية والنزعة الاجتماعية،؛ حيث دعا إلى التأكيد على مبدأين أولهما تبين نوع العلاقة الموجودة بين الفكر والواقع، وثانيهما أنّ للفكر موقعه الطبقي في المجتمع، ففي ظل الفلسفة الماركسية بوصفها فلسفة مادية وجدت البنيوية التكوينية مركزها الفكري، حيث رفضت عزل النص- بوصفه أثرا من آثار الفكر الانساني- وإغلاقه على نفسه، وهذا ما يجعل النص الأدبي نصا يحمل رؤية للعالم ومهمة الناقد هي البحث في العلاقة بين النص والواقع الاجتماعي ثم تحديد الموقع الفكري الذي تنهض منه هذه العلاقة، وقرر أن كل فكرة أو عمل أدبي لا يكتسب دلالته الحقيقية إلا عند دمجه في بنية حياة معينة ومنظومة سلوك معين، فالعمل بالنسبة للنقد الماركسي ليس نتاجا لشعور فردي مستقل؛ بل هو لحظة متفردة في التاريخ تكسبها الكتابة الإبداعية بنية وشكلا متميزا عندما ترصدها وتسجلها وتجسدها وتكشف عن دلالتها، وهو ما يؤدي إلى فكرة "رؤية العالم" وقد قّمها على أنها مجموعة «التطلعات والعواطف والأفكار التي توحد أفراد

المجموعة أو الطبقة بمواجهة مجموعات أخرى، هذه الوحدة المنبثقة من فعاليات الوعي الجماعي في تماسكه وتشابك عناصره»[1].

يعمق الوعي الجماعي العائلي والمهني والطبقي عند غولدمان اتجاها موحدا للعواطف والتطلعات والأفكار والآمال، بينما يعتبر الإيديولوجيا «رؤية جزئية غير كلية ومملوءة بوهم كونها مركز حقيقة العالم»[2].

في مقابل الشمولية التي تميز رؤية العالم يقرر غولدمان أن الأيديولوجيا تتصل بالنفعية والصراعات السياسية الأمر الذي ميزها بالعجز والضيق؛ فهي تشتغل ضمن مجال ضيق، حدوده الوهم والصراع السياسي والمصالح الطبقية، النفعية والفئوية، وعلى الخلاف من ذلك يقرر أحد رجالات الفكر ريمون آرون Raymond Aron أن الايديولوجيا ليست ذات نظرة ضيقة بل على العكس من ذلك، تتسم بالشمولية التي تجعل من وظيفتها تلتقي مع مفهوم رؤية العالم، من خلال كونها نظام شامل لا ينفصل عن الفضاء الاجتماعي والسياسي، أين يستطيع الأفراد فيها تشكيل تصور شامل لتفسير وجودهم وتنظيم علاقاتهم، فهي «نظام شامل لتغيير العالم»[3].

كما قدم الفيلسوف الفرنسي ألتوسير Althusser الأيديولوجيا في مقاله (الايديولوجيا وأجهزة الدولة الايديولوجية) على أنها تتهيكل من خلال حضورها الاجتماعي عبر مختلف الأجهزة لتؤدي وظيفتها في حفظ مكانتها وبقاء سيطرتها، ويعتبر «المدرسة والعائلة ووسائل الاتصال، وحتى النقابات والنظام السياسي هي عناصر الجهاز الايديولوجي للدولة التي تضمن للايديولوجيا المسيطرة الانتشار

---

1. عمرو عيلان. **الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي.** مرجع سابق. ص. 25
2. Encyclopèdie; **Encarta**. Karl Mannheim. ,microsoft 1998 .
3. -عمرو عيلان. **الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي**، مرجع سابق. ص. 26

والنوعية عبر فئات المجتمع »[1] . وهو مفهوم جامع يقصد إلى إضفاء الطابع المؤسّساتي عليها ويتعلق بالوظيفة الأساسية للايديولوجيا وهي إعادة « انتاج النظام، وتدريب الأفراد على القواعد التي تحكم النظام »[2] والايديولوجيا في نظر ألتوسير تتجلى بصفتها أفكارا ومؤسسات فعلية تقوم بوظيفة تحقيق هيمنة الدولة، وهي نظرة متطورة للنظرة الماركسية تقصد إلى توسع مستوى انتشار الايديولوجيا باعتبارها مفهوما لم يعرف تحديدا نهائيا في فلسفة من الفلسفات الغربية منذ قدمه دي تراسي.

تتفق جل التعريفات التي قدمتها كل التصورات الفكرية والفلسفية على أن ثمة تلاحما بين الواقع والإيديولوجيا فهي «لا تعكسه فحسب بل تحاول تسويغه أيضا والواقع ليس مجرد واقع اجتماعي مادي وإنما هو واقع اجتماعي نفسي وروحي، بل إنه ليس واقع فحسب وإنما هو أيضا تطلعات وآمال»[3] وعلى الرغم من الاختلافات البينة في تعاريفها، يمكن أن نصوغ الإيديولوجيا على أنها نتاج فكري معرفي شامل، ينطلق من الفرد الذي يمثل اللبنة الأساس في تشكيل الفكر الاجتماعي، وتتأسس على خلفيات بلورتها جدلية التاريخ والواقع، والأساس فيها أنها تتجسّد عبر آثار النشاطات الإنسانية والممارسات الفعلية في الواقع، لذلك لا بد من تحديد آثار الإيديولوجيا وطرائق اشتغالها ومحاولة تفكيك برامجها تمهيدا لكشف حقيقتها عبر القيم والأفكار الموجودة ضمن فضاءات النصوص الأدبية بخاصة، والتي تضفي على الإيديولوجيا من ذاتها وتصبغها بصبغتها في علاقة تأثير وتأثر تجعل من

---

1 . Encyclopèdie; **Encarta**; Ideologie, microsoft 1998 .

2. بول ريكور، **محاضرات في الايديولوجيا واليوتوبيا**، تر فلاح رحيم، (ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2001).

3- عبد الوهاب محمد المسيري. **الإيديولوجية الصهيونية:** (الكويت، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة. سلسلة عالم المعرفة, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1983)، ص. 135.

النص الأدبي وسيطا ايديولوجيا من خلال الكتابة والتشكيل الدلالي بما يحمله من عناصر لغوية وغير لغوية، على اعتبار أن لغة النصوص الأدبية ليست فقط المستويات اللغوية ولكنها - بصفة أكثر حدة- كل العناصر الفاعلة في السرد. ومن ذلك تنطلق جدلية الايديولوجيا والخطاب والنص، وقبل الخوض فيها لا بد بدءا أن نشير إلى مفهوم الخطاب ثم النص.

2- مفهوم الخطاب:

إقترن مفهوم الخطاب Discours[1] في الدراسات الكلاسيكية بمعاني صياغة شكل الكلام أو الكتابة فاعتبر«كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان ملفوظا أو مكتوبا»[2] وبظهور النقد الألسني البنيوي وما بعد البنيوي، عرف المفهوم تصورا مخالفا يشير دوما إلى «الفروق النوعية ويؤسّس الهويات»[3] أي إنه يقترن بالاختلاف وبالتجنيس الأدبي، وبالميزات والخصائص التي تسمي هوية الكتابة، فنجد الخطاب الشعري والخطاب الروائي والخطاب السياسي والقانوني وغيرها، وهو يقوم أساسا على الحوار كشرط أساسي لتشكيله، ولكن الأمر يبدو أكثر غموضا حينما نجد الدراسة المعاصرة للخطاب تعارض الدرس البنيوي في فهمه لمبدأ النظام اللغوي، والسؤال المشروع هو ما هي بؤرة الاختلاف بين الرؤية البنيوية للنظام اللغوي وبين رؤية دراسة الخطاب المعاصرة؟.

لما كانت اللسانيات السوسيرية تذهب إلى التجانس في اللغة، وشمولية النظام

---

1 -Michel Quitout, al-lassin. **Petit dictionnaire des termes des sciences du langage ,** l'harmattan, Paris 2000.

2- سعد البازعي- ميجان الرويلي، **دليل الناقد الأدبي**، ط4،(بيروت: الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2005)، ص.155.

3- ديان مكدونيل، **مقدمة في نظريات الخطاب**، تر عز دين اسماعيل، (القاهرة، المكتبة الأكاديمية، 2001)

اللغوي، اعتمادا على اعتبار المعنى ينشأ أساسا عن اللغة وليست سابقة عنها، فإنها تقصد إلى إعلان قطيعة عن النظريات السياقية؛ فباللغة يبدأ مسار المعنى وتشكيله مع ما تحمله اللغة من معاني الشمولية (العلامات اللغوية وغير اللغوية)، واعتبر سوسير أن «هناك شفرة مشتركة أو نظاما عاما من الأصوات والمعاني مستنبطا في مجمل العبارات المنطوقة والمكتوبة»[1] وهي الشفرة التي تنشأ انطلاقا من وجود اللغة وليست سابقة عنها؛ لذلك استهدفت دراسات البنيويين تحديد بنية في كل قراءة للنصوص والكشف عن القواعد التي تنظم هذه البنية، ولأنهم اهتموا بدراسات اللسانيات ونسق اللغة فإن فهمهم للنص الأدبي ينبني على أساس أنه تواصلي بالدرجة الأولى يعتمد على النسق اللغوي، وركزوا في جهودهم على القواعد التي تنظم هذه البنية اللسانية في الأدب لاعتقادهم بان اللغة تنتج المعنى وليست حاملة له فقط، واعتمدت إجراءاتهم على تحليل الأنماط الصوتية وأنماط الجمل وعلاقاتها من أجل الوصول إلى الكشف عن طبيعة النظام اللساني الذي وجهه العقل بطريقة لاواعية.

وامتدادا لهذه الرؤية اللسانية للمنهج البنيوي فقد وجدت الدراسات البنيوية مجالات خصبة للدراسة شملت المجتمعات والأساطير وغيرها أنظمة بنائية تامة ومترابطة تتم دراستها من حيث أنساق ترابطها لا من حيث تعاقبها التاريخي

ترفض الألسنية البنيوية والبنيوية المفاهيم الإنسانية الخاصة بعمل المؤلف الذي يعكس تجربة إنسانية، إلا أنها- على الأقل في تطبيقاتها- لم تخل قط من إشارات للتجربة؛ فقد كان لها أثر في تعزيز المطالب الانسانية للعلوم الانسانية من خلال فكرة النظام، ولم يعد يُنظر إلى المؤلف بوصفه منشئا للنص ومصدرا له، كما

1- ديان مكدونيل، **مقدمة في نظريات الخطاب**، ص75.

لم يعد هو الصوت المتفرد الذي يعطي النص مميزاته، فالذي تتحدث وتنطق هي اللغة وليس المؤلف أو صوته.

ولكن دراسة الخطاب المعاصرة القائمة على فكرة التصادمات وتعارضات الخطاب - وبانحرافها عن الدرس البنيوي- لم تكن رجوعا إلى النزعة الانسانية البحتة، لاتصال معنى الخطاب بشرط تشكيله وهو الحوار والصراع الطبقي، الأمر الذي يجعل من فكرة النظام الشامل للغة أو البنية الشاملة أمرا غير ممكن التحقيق تماما؛ على اعتبار أن إلغاء الاشارات الانسانية (الحوار والصراع الطبقي...) يُلغي القيمة الحقيقية للنص والتي تُثّمن بتموضعها في مجال إنساني، يضيف للتجربة الإنسانية، ولكن دراسة الخطاب وعلى الرغم من تعارضها مع مفاهيم البنيوية والنظام إلى أنها لم تلغ مفهوم النظام في ذاته، ذلك أن «الخطابات المختلفة تشكل النظم المختلفة وإمكانات المعنى تثبت وتحول إلى معان محدّدة خلال الوضع الاجتماعي والمعرفي الذي ينشأ عنه الخطاب»[1].

شهدت الدراسة المعاصرة للخطاب نقلة نوعية في الفكر الغربي اتصلت بالممارسة الفعلية في الواقع الاجتماعي، وذلك عن طريق الأحداث التي عرفتها فرنسا سنوات الستينيات وتحّول الجماعات المختلفة إلى اعتماد خطابها الخاص (عمال، مساجين، مرضى نفسانيين، وغيرها من الفئات) الأمر الذي جعل من دراسة الخطاب تنتقل من النظرية إلى الممارسة؛ فظهرت كتابات تهدف إلى قراءة الخطابات بأنواعها بهدف تحديد وضع الخطاب في حالة اشتغاله الفعلية، وعلاقته بالعلم وبالمعرفة فظهرت كتابات فوكو النظام والعقاب Surveiller et Punir وبعدها ألتوسير في

1- ديان مكدونيل، **مقدمة في نظريات الخطاب**، ص.79.

مقالته (الايديولوجيا واجهزة الدولة الايديولوجية)، وكاستل في نظام الطب النفساني L'ordre psychiatrique، فكانت تلك الدراسات تمثّل تحول دراسة الخطاب من « خطاب الخضوع للآخر وألوان الخطاب السائدة التي تكرس من المفاهيم ما يحفظ لها هيبتها، إلى الخطاب الذي يتحدث (بألسنة الفئات)، وكان هذا التحول يعني في جوهره التحول عن الصوت الذي يأتي من الخارج إلى الصوت المنخرط في الواقع العملي»[1] وهو الانتقال من النظرية التجريدية إلى الممارسة الفعلية أو مطالبة الفئات بأحقية خطاباتها في مواجهة الخطابات (الفوقية) أو المهيمنة، الأمر الذي يؤكد أن عنصر الحوار شرط أساس في وجود الخطاب، فقد كانت تلك الفئات تسعى لتحقيق التفاعل مع باقي الخطابات على اختلاف مستوياتها، وبالتالي اتجهت دراسة الخطاب في تلك الفترة إلى دراسة الأسئلة المتعلقة بالوجود التاريخي والمادي للأيديولوجيات وخطاباتها السياسية والمجتمعية.

3- مفهوم النص:

يعد مفهوم النص من أكثر المفاهيم اختلافا بين عديد التوجهات والمعارف والنظريات النقدية، من الظاهراتيين إلى البنيويين إلى السوسيولوجيين وكذلك السيميائيين، غير أن المقام لا يتسع لاستقصاء مختلف التعريفات والمجالات المفاهيمية التي يشتغل ضمنها النص فقد نجد ناقدا مثل بارث « تعدّدت تعريفاته للنص الأدبي بتعدد المراحل النقدية التي مرّ بها، منذ المرحلة الاجتماعية، وحتى المرحلة الحرة، مروراً بالبنيوية، والسيميائية »[2] فمن أهم محطات تعريف النص

1- المرجع نفسه، ص.11.

2- محمد عزام، **النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي**، (دمشق: اتحاد كتاب العرب، 2001)، ص.20.

السوسيولوجية ما قام به بيير زيما من محاولة تحرير سوسيولوجيا النص الأدبي من إطار سوسيولوجيا الأدب، وذلك حينما اعتبر النص الأدبي دليلا يتكون من «العمل الأدبي كرمز حسي ومن الموضوع الجمالي الذي يمثله المعنى»[1] لذلك فقد زاوج زيما بين السيميوطيقا وبين النظرية الأدبية انطلاقا من طبيعة النص التواصلية من جهة، واعتمادا على بنيته المستقلة التي تجعل منه - وبواسطة اللغة- مرتبطا بالظواهر الاجتماعية، على اعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية بامتياز.

من خلال ما قدمه زيما يمكن القول إنّ البنية النصية بينة شاملة تجمع إليها في آن واحد البنية اللسانية-عبر مستويات العلامات اللغوية-والبنية الاجتماعية على اعتبار ارتباط اللغة بالظواهر الاجتماعية.

يقدم امبرتو ايكو في مجال السيميائيات تحليلا ذا طابع دينامي للنص الأدبي، يفرض مجموعة من الأدوات الاجرائية لتأدية وظيفة الكشف عن حقيقة النص وتمييزه عن النصوص المتفاعلة معه، والتي ترتبط أساسا بتشكيله اللغوي أو بالنصوص المؤثرة على النسيج اللغوي، أو بالتناص (intertextualité) مؤكدا على «الخصائص الصوتية في النصّ الأدبي، وعلى العلاقات الاستبدالية القائمة على محور التركيب، وعلى الدلالات الإشارية والإيمائية، وعلى الفضاء الإيديولوجي»[2] وهو الفضاء الذي يقابل النسيج اللغوي ككل ويتصل بالبرامج التركيبية التي تؤلدج بصيغتها الخاصة تشكيل النصوص وتميّزها عن بعضها البعض بما تحمله من خصائص التشكيل اللغوي.

كما أن جماعة tel quel قدمت تعريفاتها للنص الأدبي أو النية النصية

1- المرجع نفسه، ص.22.
2- ديان مكدونيل، **مقدمة في نظريات الخطاب**، ص23.

بالتركيز على الجانب المادي أو الكتابة والانفتاح اللغوي، فقد ميّز سولرز ثلاث مستويات للنص: طبقة سطحية، متوسطة، وعميقة «فالطبقة السطحية للنص هي الكتابة (الألفاظ، والجمل، والمقاطع...) أو ما هو مكتوب فعلياً .وهي تُقرأُ بوضوح والطبقة الوسطى هي (التناص)أو الجسد المادي للنص، وهو لا يُكتب من جمل أو كلمات، وإنما هو من نصوص، حيث تتقاطع الكتب فيما بينها، وتُحمل إلى نطاق أبعد من حدودها، وذلك داخل النصّ المجمل..والطبقة العميقة هي الكتابة أو انفتاح اللغة»[1] ويؤكد على أن عملية الكتابة أو عمليات الإنتاج القائمة على الطبقات الثلاث، لا تؤسس موضوعا أدبيا بل أثرا معرفيا، على اعتبار الوظيفة المنطقية للنصوص والتي لا محيد عنها في تعالقها بسابقاتها ولاحقاتها من النصوص، وعلاقات التأثير والتأثر التي تجعل منها ذات نزعة إنسانية، وبالتالي – يرى سولرز - أن النص بمستوياته الثلاث، يتجاوز ميزاته التي تجعل منه نصا أدبيا إلى الانفتاح على الأثر المعرفي الذي يُحدثه كونه نشاط إنساني. كما يرى أيضا أن النص لا نهائي بطبيعته لأنه مكون من متتاليات تتعالق فيما بينها لتؤسس دلالة؛ وهي الدلالة التي تُبقى القارئ مجبرا على المشاركة في النص، من خلال فعل الانفتاح الذي تُحدثه الكتابة وفعل التأويل الذي يضمن لانهائية الدلالة.

أما جوليا كريستيفا فقد كانت من أهم القائلين بفكرة التناص intertextualité واعتبرت أنّ النص موضوعا لعديد الممارسات السيميولوجية، على اعتبار أنه ظاهرة عبر لسانية translinguistique ؛ يقوم بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية من خلال إعادة توزيع النظام اللغوي؛ أي إنها قدمت مفهومها للنص على أساس وظيفته

1- المرجع نفسه، ص23.

تجاه النظام اللغوي؛ فالأخير لا يعتبر نصا إلا إذا تحدّدت علاقة تواصلية بين عناصر النظام اللغوي؛ فالنص عندها إنتاجية productivité وذلك لأنه «جهاز عبر لساني translinguistique قادر على إعادة توزيع نظام اللغة redistribue l'ordre de la langue جاعلا الكلمة المبلّغة la parole communicative التي تسعى إلى بث المعلومة في علاقة حميمة مع اختلاف أنماط الكلام»[1] وهو الاختلاف الذي يقوم عليه مفهوم النص المشارك بالضرورة مع النصوص الأخرى، والتي تجعل منه عملا إنتاجيا يقوم على أمرين:

1- علاقته باللغة التي يتموقع فيها تصبح من قبيل إعادة التوزيع (عن طريق التفكيك وإعادة البناء)، مما يجعله صالحاً لأن يعالج بمقولات منطقية ورياضية أكثر من صلاحية المقولات اللغوية الصرفة له.

2- يمثّل النصّ عملية استبدال من نصوص أخرى، أي عملية (تناصّ)، ففي فضاء النصّ تتقاطع أقوال عديدة مأخوذة من نصوص أخرى، مما يجعل بعضها يقوم بتحييد بعضها الآخر ونقضه[2]، بما تحققه عناصر تشكيله من قوة وغنى في مستوياته التركيبية والاستبدالية التي تميزه عن غيره من النصوص الأخرى.

إنّ النص عند كريستيفا هو تبادل لنصوص أو ملفوظات، تُبطل إحداها الأخرى؛ بمعنى أنه تفعيل وممارسة دالة وجدال الذات والأخر والسياق الاجتماعي، وهو عندها متعدد الدلالة تتقاطع فيه عدة معان ممكنة، لذلك لا ترى أن تحليله يتوقف إجرائيا –من منظورها السيميولوجي- عند مستوى النص الظاهر فقط، و من أجل ذلك قدّمت مصطلح (الايديولوجام) وعبرت به عن« الوظيفة التناصية التي

1- عبد الملك مرتاض، **نظرية النص الأدبي**، (الجزائر: دار هومة، 2007)، ص.277.
2- محمد عزام، **النص الغائب**، ص21

يمكن أن نقرأها مجسدة في مستويات مختلفة لبنية كل نص، والتي تعطيه خيوطا تاريخية واجتماعية»[1] وأقرت بأن الايديولوجام هو الذي يحدّد عمل السيميولوجيا في التناص النصي على أساس مساره المنهجي والإجرائي؛ لأنه ينطلق من النص كدليل منفتح الدلالات؛ فمنهجه في التحليل النصي لا يتوقف عند اعتبار النص ظاهرة لسانية فحسب؛ بل يُعنى في الأساس بالجانب التواصلي للإشارات اللغوية.

إن اعتبار النص دليلا منفتح الدلالات، من خلال اعتماد –كأساس-الجانب التواصلي للإشارت اللغوية، يجعل من النص المطبوع غير قابل للقراءة إلا إذا «استنطقنا تكوينه اللساني وقمنا بفعل توليده من خلال نسيجه اللغوي»[2] ويتطلب الوصول إلى النص المكّون عدة معارف كالسيميولوجيا والتحليل النفسي والألسنية وغيرها من المناهج والإجراءات التحليلية التي من شأنها أن تكشف عن صيغ الكتابة والتشكيل النصي عبر مقاربة مستويات النص عند كل منهج.

وكذلك يتصل مفهوم النص بالحدث على اعتبار تعالقه بالزمن والمكان واستحالة إعادته المطلقة على خلاف الحدث التاريخي، الأمر الذي يجعل منه عالما نابضا أو حياة تقابل العالم خارج النص بكل ما يحويه من معاني الحياة في معايشتها للحدث التاريخي الذي لا يوجد منفصلا عن حدود الزمان والمكان.

يتصل مفهوم النص كذلك بالوظيفة التواصلية مع المتلقي لقيامه بفعل الإضافة والتأثير على اختلاف الطريقة والتجربة الوجدانية من خلال تواصلية اللغة كونها ظاهرة اجتماعية، وللنص كذلك مقاربة مفاهيمية تتصل بالوظيفة التفاعلية التي تهتم بفعل التداول في المجتمع، حيث لا يمكن للنص أن يحيا و«يتشكل من خلال القراءة

1- المرجع نفسه، ص23.
2- المرجع نفسه، ص24.

وجوهره ومعناه ليسا وليدي النص بقدر ما هما وليدي التفاعل الداخلي بين أجزائه وتصورات القارئ »[1] ففعل القراءة يبقى دائما عماد خلود النص، ويتطلب من الأديب مراعاة هذا الوجدان من خلال مراعاة التشكيل اللغوي أساسا أو الواجهة الأولى. كما نجد كذلك أنّ النص يحمل معنى الفضاء الكتابي الايقوني[2] المغلق من جهة والمنفتح من جهة الدلالة والتأويل؛ أي المنغلق من جهة ما يسمى بالفضاء النصي «الذي هو الحيّز الذي تشغله الكتابة ذاتها، باعتبارها أحرفاً طباعية على مساحة الورق. وتشمل ذلك: تصميم الغلاف، ووضع المقدمة، وتنظيم الفصول، وتشكيل العناوين، وتغيرات حروف الطباعة»[3]. والمنفتح عير جانبه الدلالي وأفعال القراءة.

كما شهد المفهوم علما خاصا به هو علم النص الذي أسسه فان ديك والذي احتل محل البلاغة واعتبرها سابقة تاريخية له، وحدّد في كتابه (علم النص) بنية النص من خلال ظاهرتي الاتساق والانسجام« فبدأ ببيان أوجه عدم كفاية نحو الجملة لوصف ظواهر تجاوز حدود الجملة، وعدّ النص وحدة أساسية لا تستوجب تحولا كميا في المعايير، ثم مّز هذا الإطار الموسّع (النص) وخصّه بمصطلح نحو النص أو نحو الخطاب، أو أجرومية النص»[4] وقد دعا في كتابه (جوانب من علم النص Aspects of text grammar عام 1972 إلى ضرورة اتباع طرق جديدة في تحليل المستويات الصوتية والتركيبية والدلالية للنص، وهو انتقال عمودي من دراسة البنيات

1- إبراهيم محمود خليل، **النقد الأدبي الحديث، من المحاكاة إلى التفكيك**، ط2، (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2007)، ص 121.
2- محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص**، ط4، (بيروت: الدار البيضاء المركز الثقافي العربي، 2005) ص120.
3- محمد عزام، **شعرية الخطاب السردي**، (من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2005)، ص73.
4-سعيد حسن البحيري، **علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات**، (مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر، 1997)، ص.183.

الصغرى للنص إلى بنيات أكبر تمثل وحدة معنوية هي النص، ويرى أن «وصف الكلام عند الجملة الواحدة غير كاف، إذ لا بد من الانتقال إلى وحدة أكبر هي النص»[1].

كما يشير سعيد يقطين إلى مفهوم البنية النصية الكبرى التي يتحول فيها الأدب إلى «مؤسسة اجتماعية لإنتاج القيم النصية والثقافية العامة وإعادة إنتاجها»[2] وذلك عن طريق تنويعات الإنتاج النصي الفاعل في تشكيل البنية الكبري التي تتعالى لتصبح خزان القيم للأمة وتاريخها، ويعتبر أن اللغة الجزء الأهم في البنية على اعتبار أن القارئ -من خلال خلفياته المعرفية- تتعد خلفياته النصية بتعدد القراءات وقياسا بمدى انفتاحها وانغلاقها وهكذا« نجد أنفسنا أمام تجاذب تاريخي وتصارع لاسيما في القراءات التي تتعدد فيها الخلفيات النصية سواء على صعيد الكتابة أو القراءة»[3] كما أن تصور يقطين لتحليل النصوص يعتمد على مقاربة النص داخليا وخارجا؛ حيث يرى أنه لا يكفي في عملية تحليل النص الكشف عن العلاقات الداخلية التي تمتد داخل النص و تظهر في المعاني الأساسية ومعاني أبنيته فحسب، بل يجب أن يتسع التحليل ليضم المعاني الخارجية للنص، وسماها المعاني الإضافية أو الإشارية أو الإحالية أو التداولية.

إنّ اختلاف وتعّدد مفاهيم النص وتعالقه بالكتابة عبر مختلف المناهج والدراسات النقدية، لا ينفي أوجه الاتفاق التي تعتبر النص دائما يتصل بمعاني المدونة الكلامية التي تميّزه عن الصورة الفوتوغرافية وغيرها؛ أي اعتماد اللغة المكتوبة

1- إبراهيم محمود خليل، **في اللسانيات ونحو النص**، (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، دت) ص. 195.
2- سعيد يقطين، **انفتاح النص الروائي، النص والسياق**، (بيروت: الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1988)، ص.150.
3- المرجع نفسه، ص151.

في تحديد المجال النصي. فقد قرر محمد مفتاح أن النص « مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة»[1] ولعل هذا التعريف يعتبر الأشمل لجمعه بين معنى فضاء الكتابة في كلمة مدونة وبين معاني الانفتاح من خلال الوظائف المنوطة بالنص.

ومن هذا المنطلق نأخذ فيما يلي من دراسة علاقة النص بالخطاب، في إطار البحث في جدلية الايديولوجيا/ الخطاب /النص.

4- جدلية الايديولوجيا / النص / الخطاب:

أ- ثنائية النص / الخطاب:

إنّ العلاقة بين النص والخطاب هي أساسا علاقة انبثاق وتجسيد، بحيث إنّ الخطاب يجسّد تعبيره في النص؛ لأنه ذو بعد متعلق بالمحتوى والموضوع ويعتبر امتدادا للبعد الاجتماعي بينما يمثل النص البعد اللغوي، وبما هو كذلك فإن النص يعتبر تحيينا للخطابات وتحقيقا لغويا لها.

يعتبر اختلاف الخطابات خاصة مميزة على اعتبار أنّ لكل مؤسسة فكرية أو غيرها خطاباتها الخاصة أو حقولها الخطابية التي تختلف عنها في غيرها، وفي الوقت ذاته نجد أنّ كثيرا من النصوص تتعدّد فيها الخطابات فتختلف أو تتعارض، وإن جزءا من مجال السمات والظواهر اللغوية التي تؤلف النص يتحدّد وينتخب بواسطة خصائص الخطاب؛ بمعنى أن الخصائص التي ينتجها الخطاب لا تؤدي نصا بالضرورة؛ لأنّ أهم ما يؤسس النص هو النوع «لكل شكل نوعي إمكانيات وحدود خاصة هي جزء موجود في ذلك النوع»[2] من هنا يحمل تعبير خطاب ضمن

1- محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص**، ص.120.

2- غونتر كريس Gunther Kress، **النص والخطاب**، عادل الثامري 2006/05/04 http://www.doroob.com/?p=7763

نوع خاص معه، معان وقابليات وحدود ذلك النوع. من ذلك ما مثّل به (كريس) في ما يُعرف بنص الافتتاحية؛ حيث لم يكن هذا«الشكل النوعي (إفتتاحية) موجوداً قبل ظهور الصحف بشكلها الحالي في أواسط القرن التاسع عشر. ولكن ما إن وجد هذا النص، منح –كنوع- حالاً الخطاب الذي يقدمه معنى أبعد من المعنى الذي تعبر عنه السمات اللغوية للنص. إن له نتيجة صيغية "modal"تؤثر بالطريقة التي يُقرأ بها النص»[1]. وكأن معرفة النوع "مسبقاتّهيّئ المتلقي وتأثر على طريقة تلقيه للنص.

إنّ علاقة الخطاب بالنص علاقة جدلية، الفارق فيها هو التحيين اللغوي؛ لأنّ الخطاب يظهر من خلال النص وفيه، كما أن لغة النص تُشكّل خطابا بحيث لا يكون الخطاب تجميعا للنصوص ولكنه البذية التجريدية لتجّمع ما. والخطاب من جهة أخرى متأثر ومبهم بواسطة تأثير النوع.

ب- التشكيل الإيديولوجي وثنائية النص / الخطاب:

تتجّسد الإيديولوجيا عبر ماديات لغوية بأشكال مختلفة وصور متعّددة، ويستدعي البحث في تحييناتها تحديد مجالات النوع المعرفي والشكل، وبالتالي التفريق بين تمثيلها في الوسائل الاتصالية - كتجسدات نصية أو خطابات- وبين حدود النوع المحتوي لها أو النصوص، وذلك على اعتبار أن الشكل اللغوي لا يمتلك دلالة بمعزل عن غيره وبالتالي لا يمتلك أي وظيفة ايديولوجية، بمعنى أن الخطابات -إذ تقوم على العبارة وتحقق التواصل من خلال انتقالها عبر اتجاهات المخاطبة- تُعّو عن وجهة نظر تستلزم التأثير والتأثر بالاعتماد على مبدأ التعارض، وهو المبدأ الذي تقوم

1-المرجع نفسه.

عليه الخطابات أساسا، الأمر الذي يفسّر تماما اختلاف الخطابات عبر المؤسسات الاجتماعية، ويفسر كذلك تعالقها الضروري عبر مبدأ التعارض والصراع الدائم.

لا يعني اختلاف الخطاب عبر المؤسسات الاجتماعية، الاستقلالية الفعلية لها لضرورة تعالقها اللغوي - على الأقل- وارتباطها بسياقات الكلام؛ حيث ينتج عنه «تأثير مباشر وغير مباشر من خلال علاقة "الخطاب" بخطاب آخر»[1] في شبكة من العلاقات غير منتهية، تجعل من الخطابات واصفة وناقدة ومتصادمة....الخ، الأمر الذي يؤكده بارث Barthes حينما يقرر أن «الخطاب ينشط في حافزه التاريخي عن طريق المصادمات»[2] التي تعتبر أساسا في تشكيل الخطابات، كما كانت أساسا في التشكيل الطبقي المادي، وأساسا كذلك في بناء شبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية المعقدة التي تجعل من الخطاب ينطوي على الهيمنة وعلى المخاطر، يقول ميشيل فوكو في(نظام الخطاب) «أفترض أن إنتاج الخطاب في مجتمع ما هو في الوقت نفسه إنتاج مراقب أو منتقى ومنظم ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطانه ومخاطره والتحكم في حدوثه وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة»[3].

وقد اعتبرت كريستيفا أن للنص -كدال- توجيها مزدوجا «يتجلّى الأول في كونه يميل نحو النسق الدال الذي تنتج فيه اللغة في عصر ومجتمع معينين، ويبرز الثاني في ميله نحو المسار الاجتماعي الذي يسهم فيه باعتباره خطابا»[4] الأمر الذي

1- ديان مكدونيل، **مقدمة في نظريات الخطاب**، ص68.
2- المرجع نفسه، ص69.
3- سعد البازعي-ميجان الرويلي، **دليل الناقد الأدبي**، ص155.
4- محمد عزام، النص الغائب، ص52.

يجعل من عملية التوجيه عملية تؤدلج "تعبير العروي" كلا من النص-كمستوى لغوي- والخطاب-كفاعل اجتماعي.

إذا كانت الأشكال اللغوية متعالقة– بالضرورة- دلاليا؛ فإنّ الدلالة الايديولوجية تعزى إليها باعتبارها تظهر في شكل انتظامي في النص، وتحقق من وجهة ما ظواهر لغوية تنتظم في شكل من الأشكال ذات الدلالة، وبالتالي فإنّ نوع الخطاب هو أساس العلاقة بين اللغة والايديولوجيا و والتشكيل اللغوي الذي يؤسس خطابا يعّو عن ايديولوجيا ينتظم بواسطتها، ومنه فإن كلا من الخطاب والايديولوجيا يعتبران مراحلا دلالية وجانبان لنفس الظاهرة. والنص الأدبي يغدو بواسطة اللغة عبارة عن رسالة ناجمة عن نظام محدد من المفاهيم والشفرات، ويقوم الباحث بعملية إبراز «الخواص الناجمة عن توافق جملة من عمليات التشفير، وعلاقاتها الجدلية، وتراتبها البنيوي، مما يجعلها تؤلف شفرة أدبية عامة»[1] هي ذات الشفرة التي يعتمد عليها الباحث والناقد في تحديد العلاقة بين النص والمتلقي حول الفرضيات الإيديولوجية.

تتدخل عملية تحديد المعنى في الخطاب في مستوى أوسع من تعالقه بالكلام والكتابة فتتصل بسياق«العلامات ونظامها وتتبادل المكان فيما بينه»[2] وبالتالي فهناك ضرورة قصوى لدراسة الخطاب دراسة شمولية تنتقل من العلامات اللغوية إلى العلامات غير اللغوية، تتم في إطار نظرية سيميوطيقية تهدف إلى توصيف علاقات التواصل بتحقيق أهم مباحثها، كما تورده المصادر النظرية والتطبيقية للمنهج السيميائي فتغدو أمرا يتعلق بتحليل الخطاب بعامة والأدبي منه بخاصة؛ ذلك أن كل

1-صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992)، ص.215.

2- ديان مكدونيل، **مقدمة في نظريات الخطاب**، ص.69.

بناء من المعاني الكلامية وغير الكلامية يدخل ضمن دراسة الخطاب الذي يقع في امتداد أوسع من الممارسات الايديولوجية.

إنّ اللغة - من خلال خصائصها- تجسّد الايديولوجيا بواسطة علاماتها وأساليبها، أما الكتابة فهي- كما يراها فوكو- « قلب منهجي لعلاقة القوة بين الحاكم والمحكوم إلى مجرد كلمات مكتوبة، بيد أنها "الكتابة" سبيل من سبل إخفاء المادية المروعة لإنتاج محكوم ومروض على هذا النحو من الضيق البالغ»[1] إذ ّها تحيين وتحقيق بمقدوره إخفاء أو إظهار أنساق فكرية عن طريق التحكم في آليات وخصائص اللغة، كما يركز فوكو على اعتبار أنّ أي خطاب ليس بريئا، بل يحمل دورا واعيا يحقق الهيمنة التي يمارسها -في حقل معرفي أو مهني- أصحاب ذلك الحقل «على أهلية المتحدث وصحة خطابه وشرعيته»[2] ودراسة الخطاب وتحديد هويته بطريقة علمية تتطلب من الباحث الانطلاق من داخل الخطاب ذاته أو في سياقه الثقافي والسياسي، فالنقد الأدبي مثلا -كحقل معرفي ومهني- ليس بمعزل عن هذا الطرح؛ حيث نجد مفاهيما كثيرة تمارس هيمنتها الواعية على إنتاج النقد مثل مفاهيم موت المؤلف، الوحدة العضوية... وغيرها من المفاهيم المتداولة التي تمارس سلطتها وهيمنتها في الدراسات النقدية.

نتسائل عن حقيقة العلاقة التي بين الايديولوجيا والخطاب، انطلاقا من فكرة الهيمنة التي تمارسها الخطابات على حقول المعرفة وعلاقات التأثير والتأثر بينها وبين التحيينات المادية لها، فنجد أن الايديولوجيا شاملة لكل مظاهر الحياة والفكر بحيث لا يمكن تخيل وجود ظاهرة –مهما كان نوعها-غير ايديولوجية، بخاصة في

1- محمد كامل الخطيب. **الرواية والواقع**، ص.107.
2- سعد البازعي- ميجان الرويلي، **دليل الناقد الأدبي**، ص.155.

مجال الخطابات التي تفشل دائما في تقديم نفسها تقديما نهائيا على اعتبار استحالة الهيمنة الكاملة على خصائص التشكيل النصي.

خاتمـــــة:

إنّ فعالية ودورالإيديولوجيا واقعيا أو نظريا لا يمكن أن يـُحدد إلا داخل إطار العلاقة مع الطبقات الاجتماعية وبنيتها والصراع الذي يجمع بينها بوصفها تشمل "جانبا نظريا يقوم بعملية معرفة ويقدم نشاطا فكريا، وجانبا تطبيقيا لكونه إطارا لنشاط يتجسد كـ (إيمان) و(اعتقاد) وتترجمه عيانيا مواقف وممارسات ونشاطات ملموسة"1 ومنه فكل سلوك للإنسان يحمل تصورا للعالم يتجسد ويترجم في أشكال وممارسات وسلوكات تنتج بدورها إيديولوجيا، بمعنى أن الأخيرة تصبح صورة مصغّرة ملموسة أو أثر مجسم قابل لكل أنواع التحليل والدراسة، ينتمي بصورة ما إلى الصيغة الفكرية الأولى التي أثمرت نشاطات وممارسات الإنسان في صراعه مع العالم، ومن بين تلك التجليات يقدم السرد نفسه كأكثر أنشطة الإنسان قابلية للمقاربة الايديولوجية عبر مستويات الخطابات والنصوص السردية.

1. عمار بلحسن. الأدب والإيديولوجيا. مرجع سابق. ص. 19

ببليوغرافيـــا:

المراجع باللغة العربية:

1. إبراهيم محمود خليل: **في اللسانيات ونحو النص**، (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، دت)
2. **النقد الأدبي الحديث، من المحاكاة إلى التفكيك**، (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2007).
3. زكريا إبراهيم، **مشكلة الفلسفة**، دط، (مصر: مكتبة مصر، الفجالة، دت).
4. سعد البازعي- ميجان الرويلي، **دليل الناقد الأدبي**، ط4، (بيروت: الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2005).
5. -سعيد حسن البحيري، **علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات**، (مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر، 1997).
6. سعيد يقطين، **انفتاح النص الروائي، النص والسياق، (** بيروت: الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1988).
7. صلاح فضل، **بلاغة الخطاب وعلم النص، (**الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،1992).
8. عبد الملك مرتاض، **نظرية النص الأدبي**، الجزائر: دار هومة، 2007.
9. عبد الوهاب محمد المسيري. **الإيديولوجيا الصهيونية.** دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة. سلسلة عالم المعرفة, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1983،
10. عبد الله العروي، **مفهوم الايديولوجيا**، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط7، 2003.
11. عمار بلحسن. **الأدب والإيديولوجيا.** المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، دط، 1984.
12. عمرو عيلان، **الايديولوجيا وبنية الخطاب الروائي**، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001.
13. محمد إسماعيل قباري. **قضايا علم الاجتماع المعاصر.** دط، (الإسكندرية، منشأة المعارف. دت).
14. محمد عزام: **النص الغائب** (تجليات التناص في الشعر العربي)، اتحاد كتاب العرب، دمشق 2001.
15. **شعرية الخطاب السردي**، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2005.
16. محمد كامل الخطيب. **الرواية والواقع**، (لبنان: بيروت، دار الحداثة، 1981).
17. محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص**، ط4، (بيروت: الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي 2005).

المراجع المترجمة:

18. بول ريكور، **محاضرات في الايديولوجيا واليوتوبيا**، ترجمة فلاح رحيم، (ليبيا، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2001).
19. ديان مكدونيل، **مقدمة في نظريات الخطاب**، ترجمة عز دين اسماعيل، (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، 2001).

المراجع الأجنبية:

20. Michel Quitout, al-lassin . **Petit dictionnaire des termes des sciences du langage**, l'harmattan, Paris 2000.

الموسوعات:

21. -Encyclopèdie ; **Encarta**; Ideologie, microsoft 1998 .

المواقع الالكترونية:

22. .-21agora .qc.ca /mot.nsf/dossier/ideologie 10/12/2005
23. - غونتر كريسGunther Kress، النص والخطاب، تر، عادل الثامري 2006/05/04
24. http://www.doroob.com/?p=7763